حديث الأنبياء (٣)

النبي الكريم هود

عليه السلام

اسم الكتاب: النبي الكريم هود عليه السلام.

اسم المؤلف: إبراهيم أحمد قشطة.

الطبعة الثانية: ١٤٤٤هـ – ٢٠٢٢م.

النبي الكريم هود عليه السلام

أ/ إبراهيم أحمد قشطة

رفح – فلسطين
١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م

الطبعة الثانية
طبعة مزيدة ومنقحة

الإهداء

إلى والدي – قدّس اللهُ روحَه – الذي علمني أنَّ الرجال يصنعهم العرق.

إلى والدتي – رزقها اللهُ حسنَ الخاتمة – التي علمتني أنَّ الكلمة الطيبة شجرة وارفة يستظلّ تحتها الناس من قيظ الحياة.

إلى شيوخي وأساتذتي الذين علموني أنَّ الإسلام دين عظيم لو أن له رجال.

إلى زوجتي التي علمتني أنَّ مَنْ لا يحبّ صعود الجبال يعش أبد الدهر بين الحفر.

إلى أُختيّ اللتين تعلمت منهما أنَّ الأخوة مشاعر جميلة حميدة.

إلى أبنائي أحمد وتسنيم ولمى ومحمّد الذين علموني أنَّ الأبوة أحلى المعاني.

المحتويات

المقدّمة

إنَّ الحمد الله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَنْ يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ محمّدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ (الأحزاب: ٧٠ - ٧١)

أمّا بعد:

فإنَّ أصدق الحَديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمّد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، وشرّ الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار، أعاذنا الله من البدع والضلالات والنيران.

وبعد:

هذا الكتاب الثالث من (سلسلة حديث الأنبياء) والموسم باسم (النبي الكريم هود عليه السلام)، ويحكي هذا الكتاب خبر هود – عليه السلام – مع قومه عاد اللئام – الذين لم يخلق مثلهم في البلاد في زمانهم من حيث القوّة والنعمة – فدعاهم وأرشدهم، وصبر على

أذاهم حتى جاءهم عذاب الله الأليم الريح العقيم، فما أبقت منهم أحدًا وهو سليمٌ إلّا هود ومن آمن معه، وقد وقع الكتاب في فصلين:

حيث جاء الفصل الأوّل (قصة هود عليه السلام) يتحدث عن: مَنْ قوم هود عليه السلام؟ وأين مساكنهم؟ وما النعم التي توافرت عليهم؟ كما وتحدث الفصل عن استكبار عاد وكفرهم، وذَكَرَ الفصل دعوة هود الكريمة لعاد اللئيمة، وما كان من موقف عاد العدائي السيّئ من دعوة نبيّهم هود، كما وتحدث الفصل عن بيّنة هود وآيته لقومه، وخُتِمَ الفصل بخبر هلاك عاد بالريح العقيم.

أمّا الفصل الثاني (الفوائد المستفادة من قصّة هود عليه السلام) تناول أهمّ الفوائد المستطابة من قصّة هود عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة وأتمّ التسليم.

الفصل الأوّل:

قصّة هود - عليه السلام -

قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٢١﴾ (الأحقاف: ٢١)

الفصل الأوّل:

قصّة هود – عليه السلام –

◎ تمهيد:

ذُكرت قصّة هود – عليه السلام – في سبعة مواضع من القرآن الكريم، حيث ذُكرت: في سورة الأعراف، وسورة الشعراء، وغيرهما، وهناك سورة كاملة تسمى بسورة هود.

قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ (الأحقاف: ٢١)

أي: اذكر يا محمّد لمشركي قريش وغيرهم خبر هود – عليه السلام – مع قومه الكافرين المقيمين في الأحقاف؛ ليعتبروا به.

وفي هذا الكتاب سوف نورد أخبار هذا النبي الكريم إن شاء الله العليم الحكيم.

◎ قوم هود عليه السلام:

قوم هود هم قبيلة عاد الأولى[1]، والمذكورة في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾ (النجم: ٥٠)، وأمّا عاد الثانية هي ثمود قوم صالح، التي سيأتي الحَديث عنها في قصّة صالح – عليه السلام – إن شاء الله.

◎ مساكن عاد:

كانت عاد تسكن في الأحقاف[2] جهة اليمن، وموقعها بالضبط، حدّده الصابوني قائلًا: " من جنوب شبه الجزيرة العربية، وتقع شمال حضرموت، وفي شمالها الربع الخالي، وفي شرقها عُمان، وموضع بلادهم اليوم رمال، ليس بها أنيس ولا سمير." (محمّد الصابوني)

وكان أهل عاد – في الغالب – يسكنون الخيام العظام ذوات الأعْمدة الضخام؛ لذا وصفهم الله تعالى بها: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧﴾ (الفجر: ٦ – ٧) أي: ألم يصل لعلمك يا محمّد، ما الذي فعله الله بعاد الأولى أهل إرم ذات الخيام العظام التي لها أعْمدة ضخام؟

---

(١) عاد قبيلة عربية بائدة.

(٢) الأحقاف: أي: جبال من الرمال عظيمة.

ما المقصود بـ (إرم)؟

ذُكر: أنّها مدينة دمشق، وقيل: الإسكندرية، وذُكر في بنائها وزخارفها ما هو من قبيل الخيال، وهذا كله غير صحيح. **والصواب – والله أعلم – أن إرم اسم للقبيلة.**

◎ قوّة عاد:

بلغت عاد (إرم) من القوّة وشدّة البأس ما لم تبلغه أمّة في الزمان الأوّل، حتى صار يخيل لكل مَنْ يشاهدهم أنه لم يخلق مثلهم في زمانهم، قال تعالى: ﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ (الفجر: ٨)

تصحيح مهم: ذكر في وصف قوّة عاد أنهم كانوا خارقين للعادة، وأنهم كانوا خارجين عن المألوف في الفطرة.

وهذا غير صحيح حيث كانت قوّتهم وشدّة بأسهم حسب العادة والمألوف لدى البشر، بيد أنهم فاقوا أهل زمانهم.

وبذلك ندرك خطأ من قال في وصف قوّتهم: إنَّ الواحد منهم كان طوله يصل إلى اثني عشر ذراعًا في السماء، وكان يحمل الصخرة العظيمة وكأنها حبّة سمسم أو أقل، ويستطيع أن يلقيها على من يشاء، ولمسافات بعيدة فيهلكه!

والعجيب نسب ذلك إلى المعصوم – صلى الله عليه وسلم – فقد روي عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: " **كان الرجل منهم يأتي إلى الصخرة، فيحملها على كاهله، فيلقيها على أي حيّ أراد فيهلكهم.**"

قال أبو شبهة: " ولعن الله من نسب مثل هذا الباطل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ولا نشكّ أن هذا من عمل زنادقة اليهود والفرس وأمثالهم، الذين عجزوا أن يقاوموا سلطان الإسلام، فسلكوا في محاربته مسلك الدسّ، والاختلاق، بنسبة هذه الخرافات إلى المعصوم صلى الله عليه وسلم." (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨هـ)

◎ ترف عاد:

بلغت عاد مبلغًا عظيمًا في شدة القوة والبأس، وكذلك بلغت – وربما أكثر – في الترف والنعيم، حيث كانت عندهم الحدائق الغناء النضرة، والعيون الجارية المتدفقة، والأولاد والأموال الكثيرة، جاء على لسان هود – عليه السلام –: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ١٣٣ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ١٣٤﴾

(الشعراء: ١٣٢ – ١٣٤)

وكانوا أصحاب قصور فخمة شامخة وبيوت بديعة فارهة كما أخبر هود عليه السلام: ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ﴾ (الشعراء: ١٢٨) أي: أتبنون بكل مكان مرتفع من الطرق بناء شامخًا كالعلم لمجرد اللهو والعبث؟ وليعرف بذلك غناكم!

وقال: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ (الشعراء: ١٢٩) أي: وتتّخذون قصورًا منيفة مشيدة بحكمة وإتقان ﴿لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ﴾ (الشعراء: ١٢٩) أي: كأنكم ستخلدون في هذه الدنيا أبدًا.

هذا كان حال عاد المادي، فكيف كان حالهم الروحي والخُلقي؟!

الجواب تجده في النقطة الآتية!

◎ استكبار عاد في الأرض:

حازت عاد من نعم الله الكثيرة ما حازت، وكان من المفترض أن تشكر عاد هذه النعم بالخضوع لله أوّلًا، وبالتواضع لعياله ثانيًا، ولكن – ويا للأسف – وظفت عاد هذه النعم الربانيّة في التكبر على عباد الله سبحانه، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ (فصلت: ١٥) أي: قد استعلى قوم عاد في الأرض على العباد، وقالوا في عتوّ وغرور: من أشدّ من قوّة؟!

يا الله!!

غطرسة ما بعدها غطرسة!!

وما أشبه الليلة بالبارحة!! فهذا هو نفس شعور الجهلة الطغاة الظلمة المغرورين في كل زمان ومكان؟!

لذا ردَّ الله عليهم وعلى أمثالهم ردًّا مفحمًا مسكتًا منطقيًّا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (فصلت: ١٥)

◎ بعثة هود عليه السلام:

استكبرت عاد في الأرض ووصل استكبارهم إلى الشرك، حيث أعادت إلى الأرض بعد الطوفان عبادة الأصنام والأوثان، فجمعت عاد بين الاستكبار والشرك، ورحمة من الله بهم بعث تعالى إليهم أخاهم هودًا نبيًّا كريمًا من نفس قبيلتهم، يعرفونه، ويعرفون نسبه وأخلاقه وفضله.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ (الأعراف: ٦٥) أي: أرسلنا إلى عاد أخاهم في النسب، وليس في الدين والعقيدة.

◎ دعوة هود لقومه:

أرسل الله تعالى هودًا إلى عاد رسولًا كريمًا، فاجتهد – عليه السلام – في دعوة قومه إلى الله اجتهادًا عظيمًا، حيث دعاهم دعوة حارّة قويّة، سالكًا معهم كل وسيلة بديعة وكل طريقة منطقيّة.

فبدأ دعوته لهم بلفظ رشيق جميل، وهو النداء بلفظ القرابة والنسب، حيث قال: ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾، وبعد هذا النداء الرقيق المشفق قال: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾ (هود: ٥٢)

أي: يا قومِ استغفروا الله من شرككم وكفركم، وارجعوا إليه بالإيمان والإنابة، والتمسك بالتوحيد والطاعة، وبشرهم إن فعلتم ذلك بالخصب والنماء لكثرة المطر الغزير النافع الذي سيأتيكم من السماء متتابعًا على الدوام، كما وابشروا بزيادتكم عزًّا فوق عزّكم، وفخارًا فوق فخاركم.[١]

---

(١) حملت هذه الآية الكريمة إشارة لطيفة إلى أن التوبة والاستغفار سبب للرحمة ونزول الأمطار.

ولمّا كانت نفوس عاد العاتية المستكبرة نافرة من كل أمر أو إملاء بيّن هود لهم أن دعوته لهم دعوة ليس فيها إكراهًا أو إرغامًا، فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨﴾

(هود: ٢٨)

أي: " لا نجبركم بالإكراه على اتّباع ما جئتكم به، فاتّباع الدين لا يكون إلّا بإرادة اختياريّة، إذ لا إكراه في الدين."

(عبد الرحمن حبنكة: ١٩٩٣)

ثم سلك مسلكًا منطقيًّا حيث ذكرهم بنعم الله تعالى عليهم: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ١٣٣﴾ (الشعراء: ١٣٢ – ١٣٣)، وقال: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٦٩﴾ (الأعراف: ٦٩) أي: اذكروا نعم الله عليكم حيث استخلفكم في الأرض بعد قوم نوح، وزادكم في أجسامكم قوّة وضخمة.

ولمّا كان الترغيب وحده قد لا يؤثر التأثير المطلوب خاصة في مثل حال عاد المترفة المستكبرة قرن هود الترغيب بالترهيب، فسلك

هود معهم مسلك الترهيب، فقال: ﴿قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۚ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٧١﴾ (الأعراف: ٧١) أي: " (قد) حلّ بكم عذاب من الله أتخاصمونني في أصنام لا تضرّ ولا تنفع، ما أنزل الله بعبادتها من حجّة أو برهان، فانتظروا نزول العذاب إني من المنتظرين لما سيحلّ بكم، وهذا غاية الوعيد والتهديد."

(محمّد الصابوني)

ولمّا كان من المتوقع أن يقع في ذهن عاد الماديين أن هودًا ربما يسعى من وراء دعوته هذه تحصيل مكاسب دنيويّة، قطع هود هذا الوهم ولو كان متوقعًا، فقال لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٥١﴾ (هود: ٥١) أي: " لا أطلب منكم على (هذا) النصح والإرشاد جزاءً ولا ثوابًا، إنما ثوابي وجزائي إلّا على الله الذي خلقني، أتغفلون عن ذلك أفلا تعقلون أن من يدعوكم إلى الخير دون إرادة جزاء منكم هو لكم ناصح أمين؟! والاستفهام للإنكار والتقريع." (محمّد الصابوني)

وأَكّدَ هود لهم على هذا المعنى بقوله لهم: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ۝٦٨﴾ (الأعراف: ٦٨) أي: " أبلغكم أوامر الله، وأنا ناصح لكم فيما أدعوكم إليه، أمين على ما أقول لا أكذب." (محمّد الصابوني)

هذا كان حال هود مع قومه، فيا ترى بِمَ أجابوه؟!

◎ موقف عاد السيّئ من دعوة نبيّهم هود:

اِسْتَمَعَتْ عاد دعوة نبيّهم هود المخلصة الصادقة، وكان من المفترض بعد سماعهم هذه الدعوة اللطيفة المشفقة، والموعظة الرقيقة المخلصة، أن يستجيبوا لها، ولكن – يا للأسف – كان جواب عاد على هذه الدعوة الكريمة الصادقة: الرفض والاستهزاء، ثم الصدّ والتكذيب ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝٦٦﴾ (الأعراف: ٦٦) فقد قال الأشراف من قوم هود: إننا نراك في خفة حلم، وسخافة عقل، وإننا لا نشكُّ أنك من الكاذبين في ادّعاك الرسالة.

وقد أجابهم هود على ذلك فقال: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: ٦٧) أي: " ليس بي كما

تزعمون من نقص عقل، ولكنني مرسل إليكم بالهداية من ربّ العالمين." (محمّد الصابوني)

وقفة دعوية: قال الزمخشري: " وفي إجابة الأنبياء – عليهم السلام – ممّن نَسَبَهم إلى السفاهة والضلالة بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم وترك المقابلة، أَدَب حسن وخلق عظيم، وتعليم للعباد كيف يخاطبون السفهاء ويسلوا أذيالهم على ما يكون منهم." (محمّد الصابوني)

على كل حال سمعت عاد هذا الردَّ المهذب الرشيق الخليق من هود، فقابلوه – ويا للأسف – بفظاظة منقطعة النظير، حيث قنطوه أوّلًا من دخولهم في دينه الحنيف، فقالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (هود: ٥٣) أي: " لسنا بتاركين عبادة الأصنام من أجل قولك، ولسنا بمصدقين لنبوتك ورسالتك." (محمّد الصابوني)

ثم ثانيًا اتّهموا شخصه الكريم بالجنون قائلين: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ (هود: ٥٤) أي: " ما نقول إلّا أصابك بعض آلهتنا بجنون لمّا سببتها ونهيتنا عن عبادتها."

(محمّد الصابوني)

وثالثًا اتهموه بالافتراء على الله ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾ (المؤمنون: ٣٨)

ورابعًا أثاروا شبهة خبيثة ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (المؤمنون: ٣٣) فاستعظموا في نفوسهم المستكبرة أن يكون هود الإنسان البشري مثلهم رسولًا!

وبلغ عتوّهم وجهلهم أن وصّى بعضهم بعضًا أن يبقوا على الكفر قائمين، وعلى الطغيان مستمسكين، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾

(المؤمنون: ٣٣ – ٣٤)

فقد قال أشراف عاد المترفين المنعمين: هذا الذي يزعم أنه رسول ربّ العالمين ما هو إلّا شخص عادي مثلكم، أليس يأكل كما تأكلون، ويشرب كما تشربون؟ فبِمَ يفضل عليكم؟! فاحذروا: أن تنخدعوا فيه وتصدّقوه فتكونوا من الخاسرين حقًّا؛ لأنّكم أذللتم أنفسكم باتّباع شخص عادي مثلكم!

قال أبو السعود: " انظر كيف جعلوا اتّباع الرسول الحقّ الذي يوصلهم إلى سعادة الدارين خسرانًا، دون عبادة الأصنام التي لا خسران وراءها؟ قاتلهم الله أنّى يؤفكون؟" (محمّد الصابوني)

وأخيرً استهزأوا بعقيدة البعث والميعاد قائلين: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (المؤمنون: ٣٥- ٣٨)

يا الله!! ما أجهلهم وأكفرهم!!

فقد دلّت أجوبتهم المتقدمة على أن هؤلاء القوم كانوا جفاة، غلاظ الأكباد، لا يلتفتون إلى النصح، ولا تلين شكيمتهم للرشد، وقد دلَّ قولهم الأخير على جهل مفرط، وبلهٍ متناهٍ، حيث نفوا البعث والنشور، وأصروا على الكفر والفجور.(١)

وبعد كل هذه الغلظة والغطرسة، نقول:

لله درُّك يا هود صابرًا! كم لاقيت من قومك من الغلظة والقسوة والكبر والعناد، فصبرت واحتسبت، حتى قال عنك الرسول صلى الله

---

(١) إذا دققنا النظر في ردود عاد سنجدها تشبه إلى حدّ كبير مع من سبقهم كقوم نوح، ومن سيأتي بعدهم كقوم ثمود، ولا عجب في ذلك فالكفر كلّه ملّة واحدة!

عليه وسلم: " **كان هودٌ النبيُّ – صلى الله عليه وسلم – رجلًا جلدًا.**" (رواه الحاكم في المستدرك: ٤٠٦٠)

◎ بيّنة هود عليه السلام:

من مقولات عاد الغبيّة لنبيّهم هود: ﴿قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾ (هود: ٥) أي: " ما جئتنا بحجّة واضحة تدلُّ على صدقك." (محمّد الصابوني)

فهل هود لم يكن معه بيّنة من الله تشهد أنه رسول إليهم؟!

بداية: كلُّ الأنبياء والمرسلين بعث الله معهم آيات ومعجزات تشهد بصدقهم، ولا يلزم من عدم إظهارها أحيانًا عدمها، فقد صحّ عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: " **ما من الأنبياء نبي إلا أُعطي من الآيات ما مثله أُومن أو آمن عليه البشر.**"

(رواه مسلم: ٦٨٨٤)

ومعنى هذا الحَديث: أنَّ جميع الأنبياء والمرسلين – بما فيهم هود بالطبع – قد أرسل الله معهم بيّنة ساطعة ومعجزة باهرة يؤمن عليها البشر، وتشاهد بأنهم أنبياء مرسلون؛ لذا كان ادّعاء عاد ما هو إلّا محض كذب وافتراء!!

ما بيّنة هود؟

بيّنة هود كانت بيّنتين: بيّنة عامّة، وبيّنة خاصّة.

أمّا البيّنة العامّة:

هي بيّنةُ جميع الأنبياء والمرسلين، وهي نفس الدين الذي جاء به، فأحكام دين هود – عليه السلام – وتعاليمه كلها خير للناس، هذا من جهة، ومن جهة أخرى: الرسول الحقّ يأتي بما هو مُصَدّق لمن قبله من إخوانه الأنبياء، ويُصَدّقه من يأتي بعده من الأنبياء، وهود – عليه السلام – جاء بنفس ما سبقه به الأنبياء والمرسلين، وصدّقه كذلك من جاء بعده من الأنبياء والمرسلين.

وأمّا بيّنة هود الخاصّة:

هي تحدي هود العلني لقومه، أهل البطش والجبروت، مسفهًا أحلامهم وآلهتهم، والتي كانوا يخوفوه بها، قال هود: ﴿إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥﴾ (هود: ٥٤ – ٥٥) أي: أُشهد الله على نفسي، واشهدوا أيضًا يا قومِ أنني قد برئت من شرككم وكفركم، ولا أخاف كيدكم، فاحتالوا وآلهتكم المزعومة بكل طاقتكم وطاقتها في إيقاع الكيد والهلاك بي، ولا تمهلوني لحظة واحدة!

ومع هذا التحدي العلني لم يصلوا إليه بسوء، فأي بيّنة أعظم من هذا التحدي.

قال أبو السعود: " وهذه من أعظم المعجزات، فإنه – عليه السلام – كان رجلًا مفردًا بين الجمّ الغفير من عتاة عاد، الغلاظ الشداد، وقد حقّرهم وهيّجهم بانتقاص آلهتهم، وحثّهم على التصدي له، فلم يقدروا على مباشرة شيء، وظهر عجزهم على ذلك ظهورًا بيّنًا."

(محمّد الصابوني)

وقال الزمخشري: " وأعظم الآيات أن يواجه بهذا الكلام رجل واحد أمّة عطاشًا إلى إراقة دمه، يرمونه عن قوس واحدة، وذلك لثقته بربّه، وأنه يعصمه منهم، فلا تنشب فيه مخالبهم."

(محمّد الصابوني)

لطيفة: قال هود: ﴿إِنِّىٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ ولم يقل: (إني أُشهد الله وأُشهدكم إني بري ممّا تشركون)؛ وذلك لنكتة طريفة: " حتى لا يستوي الشاهدين في الصدق، وعدولًا إلى الاستهزاء بهم والتهكم بهم، إذ شهادتهم لا تأثير لها، ولا اعتبار بها." (خالد السبت: ١٤٢١هـ)

وقال الصابوني: " وذلك لئلا يفيد التشريك بين الشهادتين والتسوية بينهما، فأين شهادة الله العلي الكبير من شاهدة العبد الفقير؟!"

(محمّد الصابوني)

◎ هلاك عاد:

كفرت عاد بربّها، واستعجلت العذاب الذي هددهم به نبيّهم، فتبجحوا قائلين: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ (الأحقاف: ٢٢) أي: " فأتنا (يا هود) بالعذاب الذي وعدتنا به إن كنت صادقًا فيما تقول، قال ابن كثير: استعجلوا عذاب الله وعقوبته استبعادًا منهم لوقوعه." (ابن كثير: ١٩٨٧)

عندئذ استنصر هود ربَّه عليهم، فقال: ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِى بِمَا كَذَّبُونِ ۝٣٩﴾[١] (المؤمنون: ٣٩)، فاستجاب له ربه: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصۡبِحُنَّ نَـٰدِمِينَ ۝٤٠﴾ (المؤمنون: ٤٠)

وبالفعل جاءهم العذاب الذي استعجلوه، وأوّل ما ابتدأهم من العذاب الأليم، أنهم كانوا مملحين، فطلبوا السُّقيا (المطر)، فرأوا عارضًا (سحابًا) في السماء، فظنّوه سُقيا رحمة، فإذا هو مطر عذاب، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضًا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَـٰذَا

---

(١) اعلم – وفقك الله للحق – أن هذه الدعوة من نبيهم عليهم كانت جزاءً وفاقًا بسبب كفرهم فيما مضى من عمرهم قبل لحظة إهلاكهم، وما كانوا بمؤمنين مستقبلًا لو أمهلهم الله تعالى، فقد كانت حالتهم النفسيّة حالة ميؤوس منها، إذ وصلوا لدرجة من التعنت والعناد والإصرار على الكفر، رغم وضوح الأدلّة والبراهين التي دمغتهم، واستيقنتها قلوبهم.

عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ﴾ (الأحقاف: ٢٤) أي: لمّا رأوا السحاب معترضًا في أفق السماء، متجهًا نحو أوديتهم الجافة المَحْلَة، استبشروا وفرحوا، وقالوا: هذا السحاب سيكون غيثنا، وبه مطر غزير متدفق لنا.

ردَّ عليه هود متوعدًا: ﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ﴾ (الأحقاف: ٢٤) أي: ليس هذا العارض كما تمنّيتم أنه مطر غيث، بل هو ما استعجلتم به من العذاب الأليم.

ثم فسّره بقوله: ﴿رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ (الأحقاف: ٢٤) فكان هذا العارض حاملًا ريحًا صرصرًا عاتية ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا﴾ (الأحقاف: ٢٥)، وقد سلّطها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسومًا، فجعلتهم صرعى كأنهم أعجاز نخل بالية، ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ٦ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ٧﴾[1] (الحاقة: ٦ – ٧)

---

(١) قوله: ﴿بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ﴾ أي: شديدة السموم أو البرد أو الصوت ، وقوله: ﴿حُسُومٗاۖ﴾ أي: متتابعات أو مشؤومات. =

و﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ (القمر: ٢٠) أي: كأنهم جذوع نخل مقطوع الرأس منقلع عن قعره ومغرسه.

فكانتِ النتيجة النهائية: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ (الحاقة: ٨) حيث استئصالهم بالكلّيّة، وهذا ما دلّت عليه كلمة (أعجاز) حيث كلمة (أعجاز) اسم جنس جمعي ممّا يدلّ على أن الهلاك عمّ جميع أفراد عاد الكافرين، وعدم نجاة منهم أحد سوى هود ومن آمن به من المؤمنين.

وقد أكد تعالى على عموم هلاكهم بقوله تعالى: ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ (الأعراف: ٧٢) أي: استأصلنا شأفتهم وأهلكناهم عن بكرة أبيهم.

وقال تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ (الأحقاف: ٢٥) أي: أصبحوا هلكى لا تكاد أن تلمح لهم أثرًا إلّا مساكن مهدمة، وهذه العقوبة هي عقوبة كل من كان عاصيًا مجرمًا كافرًا.

= **وتأمّل:** اِسْتَمَرَّ العذاب يدور عليهم سبع ليال وثمانية أيام، وقد كان الله قادرًا أن يهلكهم في طرفة عين، ولكن الله العزيز الجبار أدار عليهم رحى العذاب هذه المدّة ليسومهم سوء العذاب في الدنيا مع ما ينتظرهم في الآخرة!

هكذا هلكت عاد بعد أن كانت الدنيا ضاحكة لهم ومقبلة إليهم!

هكذا هلكت عاد بعدما كانوا في رفاهية نعمة المال والقوّة والعزّة!

هكذا هلكت عاد بريح عقيم شديد الهبوب والصوت لم تُبقِ منهم أحدًا إلّا هودًا ومن معه من المؤمنين قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ (الأعراف: ٧٢) أي: نجينا هودًا والذين آمنوا رحمة من الله تعالى.

وإكمالًا لرحمة الله بالذين آمنوا مع هود نجّهم الله من عذاب الآخرة كما نجاهم من عذاب الدنيا، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾ (هود: ٥٨) قال الأنصاري " المراد بالتنجية الأولى: تنجيتهم من عذاب الدنيا، الذي نزل بقوم هود، وهي الريح العقيم التي أرسلها الله عليهم، فقطعتهم عضوًا عضوًا، والمراد بالتنجية الثانية: تنجيتهم من عذاب الآخرة، الذي استحقه قوم هود بالكفر." (زكريا الأنصاري: ٢٠٠٣)

ويسدلُّ القرآن الستار على مشهد مصرع عاد الذليل، بقوله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ (هود: ٦٠)

تصحيح: قيل: هلكت عاد بالريح العقيم، ثم إن هذه الريح أثارت في آخر الأمر سحابة، فظنّ من بقي منهم أنها سحابة فيها رحمة، فأرسل الله عليهم شرارًا ونارًا، وهذا بعيد والله أعلم.

وذكر: أنّ العارض هو عذاب ثمود (عاد الثانية)، وأمّا الريح هي عذاب عاد الأولى، وهذا بعيد – أيضًا – والصواب ما ذكرناه، والله أعلم.

o o o o

الفصل الثاني:

الفوائد المستفادة من قصّة هود - عليه السلام -

قال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ (يوسف: ١١١)

الفوائد المستفادة من قصّة هود – عليه السلام –

تمهيد:

قصة هود كغيرها – من قصص الأنبياء والمرسلين – ليست للتسلية أو السمر وإنما لأخذ العبر والعظات، وللاقتداء بهؤلاء الأطهار الأتقياء الأنقياء، والسير على دربهم، فاطلاعنا على سيرهم، وما تحملوه من أذى في سبيل الله تقوية لعزائمنا، وتصحيح لهممنا، وتسلية لنا عما يصيبنا من اللأواء.

قال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ (يوسف: ١١١)

الفوائد المستفادة من قصة هود عليه السلام:

١. **أصول العرب:**

قسّم المؤرخون أصول العرب إلى ثلاثة أقسام بحسب السلالات التي انحدروا منها:

القسم الاوّل: العرب البائدة:

والعرب البائدة: قبائل عاد، وثمود، والعمالقة، وطسم، وقديس، وأميم، وجُرهم، وحضرموت، ومن يتّصل بهم، وهذه قد دُرست

معالمها، واضمحلت من الوجود قبل الإسلام، وكان لهم ملوك امتدّ مُلكهم إلى الشام ومصر.

القسم الثاني: العرب العاربة:

والعرب العاربة: وهم العرب المنحدرة من صلب يَعْرب بن يشخب بن قحطان، وتسمى بالعرب القحطانيّة، ويعرفون بعرب الجنوب، ومنهم ملوك اليمن، ومملكة معين، وسبأ، وحمير.

القسم الثالث: العرب العدنانيّة:

قال الصلابي: " (العرب العدنانيّة) نسبة إلى عدنان الذي ينتهي نسبها إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وهم المعرفون بالعرب المستعربة[١]، وأصبحت اللغة العربية لسان المزيج الجديد."

(علي الصلابي: ٢٠٠١)

وذهب جواد علي إلى:

" مصطلح العرب العاربة والمستعربة حسب الروايات الجاهليّة إذا درسنا هذا جيدًا، تختلف عن المقصود عنها بالمعنى الذي ذهب إليه الإسلاميون، فالعرب في الجاهليّة يرون أن المستعربة هي التي تسكن قرب الروم والفرس، أي على أطراف الجزيرة، أمّا العاربة فهي

---

(١) العرب المستعربة: هم الذين دخل عليهم دمٌ ليس عربيًّا، ثم اندماج هذا الدم بدم العرب.

البعيدة، ولم يقصدوا بالعارية القحطانيين والمستعربة العدنانيين، وإنما هذا التفسير وقع من النسابين في أيام الأُمويين."

(جواد علي: ١٩٧٣)

٢. **رياحًا .. لا ريحًا:**

هل هناك فرق بين رياح وريح؟

نعم، هناك فرق بين رياح وريح، فالرياح لا تكون إلّا في الخير، أمّا الريح فقد تكون نعمة وقد تكون نقمة، فتكون نعمة إذا حركت السحاب وأنزلت الغيث، وتكون نقمة إذا ما زادت وهاجت حتى قلعت الأشجار، وهدمت البيوت، وخربت البلاد.

وقد صحّ عن عائشة – رضي الله عنها – أنها قالت: **ما رأيتُ رسولَ اللهِ ضاحكًا حتّى أرى لَهَواتِهِ، إنما كان يتبسَّمُ، وكان – صلى الله عليه وسلم – إذا رأى غيمًا أو ريحًا عُرِفَ في وجهِه، قالتْ: يا رسولَ الله، إنَّ الناسَ إذا رأوْا الغيم فرحوا رجاءَ أنْ يكونَ فيه المطرُ، وأراك إذا رأيته عُرِف في وجهِك الكراهيةُ؟ فقال: يا عائشةُ، ما يُؤْمِنّي أنْ يكونَ فيه عذابٌ؟ عُذب قومٌ بالريح، وقد رأى قومٌ العذابَ فقالوا: هذا عارضٌ مُمطرُنا."** (رواه البخاري: ٤٨٢٨)

وكان – صلى الله عليه وسلم – إذا هاجت الريح استقبلها بوجهه، وقال: " **اللهمَّ إني أسألُكَ خيرَها وخيرَ ما فيها، وخيرَ ما أُرْسِلَت به، وأعوذُ بك من شرِّها، وشرِّ ما فيها وشرِّ ما أُرسلت به،**

قالت: وإذا تَخَيَّلَتِ السماءُ تغيّر لونُه ودخلَ وخرجَ، وأقبلَ وأدبرَ، فإذا مُطِرَت سُرِّيَ عنه، فعرفتُ ذلك في وجهه، قالت عائشةُ: فسألْتُه؟ فقال: لعلّه يا عائشةُ كما قال قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَا﴾"

(رواه مسلم: ٨٩٩– ١٤٩٦)

وكان – صلى الله عليه وسلم – إذا رأى سحابًا مُقبلًا من أفقٍ من الآفاق ترك ما هو فيه، وإنْ كان في صلاتِه حتّى يستقبلَهُ فيقول: اللهمَّ إنّا نعوذُ بك من شرِّ ما أُرْسِلَ به، فإنْ أمطَرَ قال: اللهمَّ سيِّبًا نافعًا (والسيب هو العطاء، وقيل: السيب هو الجاري) **مرّتين أو ثلاثة، وإنْ كشفَهُ اللهُ – عزّ وجلّ – ولم يمطرْ حَمِدَ اللهَ على ذلك."** (رواه النسائي (١٨٣٠) وابن ماجه: (٣١٥١) واللفظ له، وأحمد: (٢٥٥٧))، والحَديثُ صحيحٌ.

٣. إن ربّي على صراط مستقيم:

قال هود: ﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦﴾ **(هود: ٥٦)**

قال ابن القيم:

" أي: هو ربّي، فلا يسلمني ولا يضيعني، وهو ربُّكم فلا يسلطكم عليّ ولا يمكنكم مني، فإنَّ نواصيكم بيده، لا تفعلون شيئًا بدون

مشيئته، فإنَّ ناصية كل دابّة بيده، لا يمكنها أن تتحرك إلّا بإذنه، فهو المتصرّف فيها، ومع هذا، فهو في تصرّفه فيها وتحريكه لها، ونفوذ قضائه وقدره فيها على صراط مستقيم، لا يفعل ما يفعل من ذلك إلّا بحكمة وعدل ومصلحة، ولو سلطكم عليّ فله من الحكمة في ذلك ما له الحمد عليه؛ لأنه تسليط من هو على صراط مستقيم، لا يظلم ولا يفعل شيئًا عبثًا بغير حكمة." (ابن القيم)

٤. سبب بطر عاد وطغيانهم:

قال هود لقومه: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٦٩﴾ (الأعراف: ٦٩)

يقول هراس: " يدلُّ (هذا القول من هود) على أن ما جرى لقوم نوح قبلهم من الهلاك والإغراق كان لا يزال ماثلًا في أذهانهم، ومع ذلك لم ينتفعوا بهذه العبرة؛ لأنّ حبّ الدنيا والأُنس إلى ما هم فيه من شرف ونعيم أعماهم، وأصمهم، وحملهم على البطر والطغيان، وهذه عادة كثير من الناس في كل زمان ومكان، إذا أعطوا شيئًا من الغنى أو القوّة نسوا كل واعظة، وأَمِنوا كل جائحة، ولم يعتبروا بمصارع الذين كانوا من قبلهم ممّن كانوا أشدّ منهم قوّة وأكثر جمعًا،

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧﴾ (العلق: ٦ – ٧)" (محمّد هراس)

ولله درُّ أبو حازم الأعرج حين قال: " نحن لا نريد أن نموت حتى نتوب، ونحن لا نتوب حتى نموت." (الجاحظ: ٢٠١٠)

٥. أصحاب المصالح ألدّ أعداء دعوة الأنبياء:

يقول هراس: " إن الذين ناوأوا هودًا، وكذبوه، وحملوا لواء المعارضة لدعوته هم الملأ والأشراف من قومه، كما كان الحال مع نوح تمامًا.

وهذه سنّة الله في الأولين والآخرين، أن أهل الغنى والجاه هم العقبة الكؤود في طريق كل إصلاح؛ لأنّهم يخشون من هذه الثورات الإصلاحيّة التحريريّة أن تقضي على جاههم ونفوذهم، وإن تنبه الجماهير المستذلّة إلى حقوقها المسلوبة، ومصالحها المهدورة، فستثور على هؤلاء المستكبرين، وتنزلهم من علياء كبريائهم وصلفهم.

أمّا المستضعفون من الناس فهم الذين يقبلون على دعوات الإصلاح، ويسارعون إلى اغتنامها؛ لأنّهم يرون فيها الخلاص من ربقة الذلّ والاستعباد." (محمّد هراس)

٦. ثقة المؤمن بربّه لا تتزعزع:

ثقة المؤمن المطمئن لوعد الله ونصره لا تتزعزع، وهود ضرب القدح المعلّى في ذلك، حيث أعلن البراءة من قومه الكافرين، وأعلن البراءة من آلهتهم التي يدعونها من دون الله، وأشهد الله وأشهدهم على ذلك، وتحدهم وهم القوم الأشداء غلاظ الأكباد أن يكيدوا له، وطلب منهم أن يجمعوا له كل ما عندهم من قوّة، ثم لا ينظرونه، وهكذا شأن الواثقين بنصر الله، وهكذا شأن المتوكلين على الله، شأنهم عدم الاكتراث لما يرعد به أعداؤهم، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٣٩﴾ (الأحزاب: ٣٩)

٧. العلم والحضارة لا ينفعان صاحبهما ما لم يتوجا بالإيمان:

قال السعدي: " العقول والأذهان والذكاء وما يتبع ذلك من قوّة ماديّة، وما يترتب عليه من نتائج وآثار، لا تنفع صاحبها إلّا إذا (صاحبها) الإيمان بالله." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٢)

فهذه عاد التي لم يخلق مثلها في الزمان الأوّل، لم ينفعها كل ذكاء ملئها أو قوّة أفرادها ما لم يصادف ذلك إيمان بالله.

وهكذا كل حضارة في أي زمان ومكان مهما امتلك أصحابها عقلًا بارعًا، وذكاءً حاذقًا، وذهنًا متوقدًا، وقوّة خارقة، ولم يصاحب

ذلك إيمان صحيح، وخلق قويم، هي حضارة هلامية هشّة، كعملاق من دخان مهيب الشكل أخاذ المنظر، ولكنه سراب عمّا قريب ينقشع!

٨. استدراج الله للظالمين:

توافر النعم وتكاثرها على الإنسان مع اقترافه الذنوب والمعاصي هو استدراجٌ من الله، يقول تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ (المؤمنون: ٥٥ – ٥٦)

فلا يظنّ المغرورون في قولهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (سبأ: ٣٥) أنهم في منأى عن عذاب الله، فقد أخطأوا، وخاب رجاؤهم، وانهزم خيلهم، إنما يفعل الله بهم ذلك استدراجًا وإنظارًا وإملاءً، ولهذا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ۝﴾ (التوبة: ٥٥)

وقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ (سبأ: ٣٧)

وعن ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **إنَّ اللهَ قَسَّمَ بينكم أخلاقَكم كما قَسَّمَ بينكم أرزاقَكم، وإنَّ اللهَ يُعطي الدنيا من يحبُّ ومن لا يحبُّ، ولا يعطي الإيمانَ إلّا من يحبُّ.**" (رواه الإسماعيلي: (٣٤٢)، والبيهقي: ٣٠٧)، واللفظ له) والحديثُ صحيحٌ.

فمن تكاثرت عليه النعم، وهو مقيمٌ على الذنوب؛ فليحذر فإنه يصدق عليه قول الرسول صلى الله عليه وسلم: " **إذا رأيتَ اللهَ يُعطي العبدَ من الدنيا على معاصيه ما يحبُّ فإنما هو استدراجٌ ثم تلا رسولُ الله:** ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ٤٤﴾ (الأنعام: ٤٤)"

(رواه الألباني في السلسلة الصحيحة: ٤١٣)

قال قتادة:

مُكِرَ – والله – بالقوم في أموالهم وأولادهم، يا ابن آدم فلا تعتبر الناس بأموالهم، وأولادهم، ولكن اعتبرهم بالإيمان، والعمل الصالح.

o o o o

خاتمة الكتاب

عاش البشرُ بعد الطوفان على التوحيد ما شاء الله أن يعيشوا عليه، حتى استزلهم الشيطانُ وحرفهم عنه، فعبدوا الأصنام، وكان أوّل من وقع منه عبادة الأصنام والأوثان من البشر بعد الطوفان هم عاد الأولى (إرم) التي لم يخلق مثلها في زمانهم الأوّل من حيث القوّة والنعمة.

أرسل الله إليهم أخاهم هودًا نبيًّا كريمًا، يعرفونه، ويعرفون نسبه وفضله، أرسله إليهم ليدعوهم إلى التوحيد، وخلع الأنداد والأصنام، وإفراد الواحد القهّار بالعبادة، وقد سلك معهم هود النبيُّ الكريم أفضل السبل، وأسمعهم ألطف العبارات، ولكن – ويا للأسف – رفضت عاد دعوة نبيّهم الكريمة وناصبوه العداء، ورموه بالكذب والسفه والهذيان.

صبر نبيُّ الله هود على أذاهم، ولم ييأس من دعوتهم، فثابر واِسْتَمَرَّ في دعوتهم، ولكنهم ما لانوا أو استكانوا، بل تبجحوا واستهزؤوا بعذاب الله الموعود، حتى أوقع الله عليهم العذاب الشديد ريحًا صرصرًا عاتية تدمّر كل شيء بأمر ربّها، سلّطها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسومًا، فجعلتهم صرعى كأعجاز نخل مقطوع الرأس مقلب الهيئة.

وهكذا هلكت عاد الأولى الكافرة فما أغنت عنهم قوّتهم، وما نفعهم بأسهم شيئًا، حتى صارت ديارهم أثر بعد عين، ولله الأمر من قبلُ ومن بعدُ.

قائمة المراجع:

١. إسماعيل بن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، مكتبة الصفا، ٢٠٠٢ م.
٢. خالد بن عثمان السبت، قواعد التفسير جمعًا ودراسة، دار ابن عفان، ١٤٢١هـ.
٣. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين ببيروت، ١٩٧٣م.
٤. زكريا بن محمد الأنصاري، فتح الرحمن شرح ما يلتبس من القرآن، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢ م.
٥. شمس الدين ابن القيم الجوزية، تهذيب مدارك السالكين، دار المنطلق، بدون سنة نشر.
٦. عبد الحميد إبراهيم، مقالات في النقد الأدبي – الجزء الأول، نادي المنيا، ١٩٨٨م.
٧. عبد الرحمن بن ناصر السعدي، قصص الأنبياء، أضواء السلف، ٢٠٠٢ م.
٨. عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها وصور من تطبيقاتها بهيكل جديد من طريف وتليد، دار القلم، ١٩٩٦م.
٩. عمرو بن بحر الجاحظ ، البيان والتبيين، مكتبة ابن سينا ٢٠١٠ م.
١٠. علي محمد الصلابي، السيرة النبوية، دار النشر والتوزيع، ٢٠٠١ م.
١١. محمد خليل هراس، دعوة التوحيد، مكتبة الصحابة، بدون سنة نشر.
١٢. محمد علي الصابوني، النبوة والأنبياء، بدون دار نشر، بدون سنة نشر.
١٣. محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، دار الصابوني، بدون سنة نشر.
١٤. محمد بن محمد أبو شبهة، الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، مكتبة السنة، ١٤٠٨هـ.

١٥. محمد بن علي الشوكاني، تحفة الذاكرين، مكتبة الورود، بدون سنة نشر.
١٦. مصطفى سعيد الخن وآخرون، نزهة المتقين شرح رياض الصالحين، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٢ م.